جماليةُ المُختاراتِ الشعريةِ الأندلُسية
كتاب: (التشبيهات من أشعارِ أهلِ الأندلُس)
لأبي عبد الله محمد بن الحسن الكتاني الطبيب (ت420هـ) أنموذجاً

زاهر بن بدر الغُسيني*
جامعة السلطان قابوس، سلطنة عُمان

BIBLID [1133-8571] 19 (2012) 257-278

Resumen: "La estética en las antologías de poesía andalusí. El libro *At-tašbīhāt min aš*ʿ*ār ahl al-andalus* de Abū ʿAbd Allāh Muḥammad ibn Al-Ḥasan al-Kattānī (m. 420 H.) como modelo". El presente artículo aborda el estudio de la estética en las antologías de poesía andalusí mediante el análisis del libro *At-tašbīhāt min aš*ʿ*ār ahl al-andalus* de Abū ʿAbd Allāh Muḥammad ibn Al-Ḥasan al-Kattānī, poniendo de relieve la originalidad de un autor andalusí que no ha recibido mucha atención por parte de los investigadores. El estudio trata, por un lado, la originalidad de la perspectiva estética en las antología y, por otro lado, las características del discurso creativo andalusí y el elevado gusto artístico y estético del autor en la elección del material poético, que refleja, en última instancia, el gusto imperante entre los poetas y críticos andalusíes de la época, y que también explica las tendencias estéticas y críticas en al-Andalus en épocas posteriores a la de al-Kattānī.

Palabras clave: Literatura andalusí. Poesía andalusí. Literatura árabe.

Abstract: "The aesthetics of Andalusi Poetry Anthologies. The book *At-tašbīhāt min aš*ʿ*ār ahl al-andalus* by Abū ʿAbd Allāh Muḥammad ibn al-Ḥasan al-Kattānī (d. 420 H.) as a model". This paper deals with the study of aesthetics in Andalusi Poetry Anthologies by means of an analysis of the

* zahir@squ.edu.om

book entitled *At-tašbīhāt min aš*ʿ*ār ahl al-andalus* by Abū ʿAbd Allāh Muḥammad ibn Al-Ḥasan al-Kattānī, trying to emphasize the originality of this Andalusi author, who has not received much attention from researchers and scholars. The study plunges, on the one side, on the aesthetic perspective in the anthology and, on the other side, on the characteristics of the Andalusi creative discourse and the high artistic taste in the choice of poetic material by the author, which reflects the prevailing taste among Andalusi poets and critics at that time, and also explains the aesthetic and critical trends in al-Andalus in later periods.

Key words: Andalusi Literature. Andalusi Poetry. Arabic Literature.

ملخص البحث: "جمالية المختارات الشعرية الأندلسية. كتاب: (التشبيهات من أشعارِ أهلِ الأندلُس) لأبي عبد الله محمد بن الحسن الكتاني الطبيب (ت420هـ) أنموذجاً". يتناول البحث "جمالية المختارات الشعرية الأندلسية" من خلال دراسة كتاب (التشبيهات من أشعارِ أهلِ الأندلُس) لأبي عبد الله محمد بن الحسن الكتاني الطبيب (ت420هـ)؛ في محاولة للكشف عن مؤلَّف أندلسي شهد على إبداع مؤلفه؛ وإن لم يَنَلْ حظه من عناية الباحثين. وسوف تكون دراستنا لهذا الكتاب من زاوية إبداعية لجمالية المختارات الشعرية في هذا الكتاب من جهة؛ وخصائص الخطاب الإبداعي الأندلسي، وسمات الذوق الفني والجمالي الرفيع لمؤلِّفه في اختياراته من جهة أخرى، التي عكست ذوق معاصريه من النقاد والشعراء والأدباء الأندلسيين، وفسَّرت في الوقت نفسه كثيرًا من مسارات الذوق الجمالي والنقدي بالأندلس في العصور اللاحقة لعصر الكتاني.

كلمات مفاتيح:الأدب الأندلسي، الشعر الأندلسي، الأدب العربي.

كان طبيعياً أن تُشكِّل عبارة الصاحب بن عباد "بضاعتنا ردت إلينا، (...) ظننت هذا الكتاب يشتمل على شئ من أخبار بلادهم، فإذا هو يشتمل على أخبار بلادنا، لا حاجة لنا به"[(1)] –وهو يتصفح كتاب (العقد الفريد) لابن عبد ربه مُقلِلاً من قيمته بعد أن حرص على الحصول عليه مذ سمع بأخباره–، علامةً دالةً في إبراز مكانة الأدب الأندلسي، إذ وضع ابن عباد في باله أن ابن عبد ربه ما كان إلا عالة على المشرق، فإذا بالعِبارة تُردد في كلِ مَحفلٍ أدبي، فظلّت أشبهَ بمُضغةٍ تُلاكُ في كل وقت في شفاه المشرقيين، تُمثِّل لهم دليلاً قاطعاً على أن الأندلسيين ما هم إلا نسخة من المشارقة، وما أدبهم إلا محاكاةٌ لهم، حتى ظهرت لنا مكتبةٌ أندلسية كانت كفيلة أن تُبرز مكانة هذا الأدب، وما وصل إليه إبداع أبنائه. فجاءت النصوص الأندلسية أنموذجاً فريداً للإبداع الذي خلَّد أدب الأندلسيين –شعراً ونثراً–.

(1) معجم الأدباء، ياقوت الحموي، تحقيق. د.إحسان عباس، دارالغرب الإسلامي، بيروتط.1، 1993م، ج. 4، ص214، ص.218.

تتناول هذه الدراسة مؤلَّفاً أندلسياً يشهد على إبداع مؤلفه –وإن لم يَنَلْ حظه من عناية الباحثين–، وهو كتاب (التشبيهات من أشعار أهل الأندلس)، وسوف تكون دراستنا لهذا الكتاب من زاوية إبداعية لجمالية المختارات الشعرية في هذا الكتاب من جهة، والذوق الفني الرفيع لمؤلِّفه في مختاراته من جهة أخرى.

نقول بداية إن المختارات ترتبط ارتباطاً وشيجاً بمنحى ومنطلق نقدي، إذ تُمثِّل اختيارات الأدباء والشعراء مؤشراً على صلتهم بالنصوص التي يطالعونها وعلى أحكامهم النقدية فيها، التي تُعطي مؤشراً إلى وعي القائم بالمختارات، والجوانب الذوقية والجمالية، فكما يُقال (اختيار الرجل جزء من عقله وذوقه). وتحت هذا الإطار يمكننا أن نُعرِّف المختارات الشعرية أنها "اختيارات أدبية تتضمن قصائد أو مقطعات شعرية منتخبة من آثار عدد الشعراء ممن عاصروا المؤلف أو سبقوه". ويَكْمنُ الفرق بينها وبين الديوان في أنها أكثر دقة وشمولية في تصوير عصرها وبيئتها، من الديوان المفرد، إذ تُمثل ذوق عصرها، لا ذوق شاعر فحسب، وتقوم على خبرات ذوقية وفنية، تنسب إلى "من نضج ذوقهم وصح حسهم الأدبي"(2).

ولا يمكن لأي دراسة كانت أن تستغني عن الجانب الوصفي وهو طبيعي، باعتباره أرضية تنطلق منها أي دراسة، فحريٌّ بنا أن نعرج إلى البذور الأولى للمختارات الشعرية التي مرَّت بثلاث مراحل:

1. مرحلة الرواة.
2. مرحلة المجموعات الشعرية.
3. مرحلة المختارات الشعرية.

المرحلة الأولى: مرحلة الرواية.

تُمثِّل مرحلة الرواية الشفهية لجُملةٍ من رواة الشعر إلا أنهم كانوا يروون كل الشعر دون اختيار أو انتقاء، وانقسموا إلى أكثر من طائفة، منهم شعراء يروون شعر شاعر بعينه، فيحفظون هذا الشعر ويتتلمذ ونعلى الشاعر، من هؤلاء الشاعر الحطيئة الذي كان راوية لزهير بن أبي سلمى وابنه كعب، وزهير بنفسه كان راوية أوس بن حجر. ومنهم شعراء كانوا يروون شعراً لمن سبقهم، ولبعض من عاصرهم من الشعراء، ولا يخصّون شاعراً بعينه يتتلمذون عليه، وإنما يردون مناهل شتى يشتقون منها ما شاء لهم الفن الشعري أن يشتقوا، ثم يصدرون وقد اكتملت لهم شخصيتهم الفنية المستقلة، ويمثل هذه الطائفة ذو الرمة. كما تمثَّلت المرحلة الأولى في وجود علماء ورواة اهتموا بالشعر والشاعر والرواية الأدبية للجاهلية، إذ كانوا يرحلون إلى البوادي لمشافهة الأعراب الذين لم يُفسد سلائقهم اللحنُ بقصد وضع قواعد وضوابط لهذه اللغة، وعاش

(2) المكتبة العربية: تاريخها، تراثها، حاضرها، د. يوسف نوفل، دار الغد العربي، القاهرة،1989م، ص. 100

هؤلاء العلماء "في القرن الثاني ومطلع الثالث، وأخذ عنهم العلماء في القرون التالية للقرن الثاني، وهم طبقتان، الطبقة الأولى يمثلها: أبو عمرو بن العلاء (ت154هـ)، وحماد الراوية (ت155هـ)، ثم خلف الأحمر والمفضل الضبي. أما الطبقة الثانية فهم تلامذة هذه الطبقة الأولى، وأشهرهم الأصمعي، وأبو زيد القرشي صاحب (جمهرة أشعار العرب)، ومحمد بن سلام الجُمحي صاحب طبقات فحول الشعراء. وكان لهم دور كبير في المحافظة على اللغة العربية من اللحن من جهة، وحفظ الشعر من الضياع من جهة أخرى، إذ هو أحد أسلحة القبيلة – وقتذاك– في الدفاع عن وجودها، ونشر مآثرها.

المرحلة الثانية: مرحلة المجموعات الشعرية.

أهمها ما جمعه حماد الرواية التي أطلق عليها أسماء منها: السموط، المعلقات، المذهبات.ولها شروح عديدة ذكرها بروكلمان لعل أكثرها شهرة شرح أبي بكر الأنباري (ت328هـ) وسماها (شرح القصائد السبع الطوال)، قام بتحقيقها عبد السلام هارون[3] والشرح الرائج لها هو شرح حسين بن أحمد الزوزني (ت486هـ). وثاني هذه المجموعات الشعرية مجموعة المفضل الضبي (ت178هـ)، واختار مجموعته الشعرية لسبعة وستين شاعرًا، من فحول الجاهلية وهم الكثرة، ومخضرمين وإسلاميين وهم القلة، وسمَّاها (كتاب الاختيارات)، ثم سُميت بعد ذلك (المفضليات) نسبة إلى جامعها، ونالت اهتمام الرواة وأهل العلم؛ لثقتهم بالمفضل الضبي وحسن اختياره لها دليل على ذائقته الفنية الراقية. واختُلِف في عددها، فمنهم من جعلها مائة وعشرين قصيدة ومنهم من جعلها مائة وثماني وعشرين. وللمفضليات شروح عدة أشهرها شرح الأنباري (ت304هـ) وقام بتحقيق هذا الشرح أحمد محمد شاكر وعبد السلام هارون.

ثالث هذه المجموعات الشعرية (الأصمعيات)، وقام بجمعها عبد الملك بن قريب المشهور بالأصمعي (ت216هـ)، بلغ عدد قصائدها اثنتي وسبعين قصيدةً لواحد وسبعين شاعراً، ونهج فيها نهج الضبي في مفضلياته، حتى تُعدّ تكملة للمفضليات، إلا أنها لمتلقَّم القيته المفضليات من الانتشار والقبول، لقلة اشتمالها على غريب اللغة. كما عمد فيها الأصمعي إلى اختصار نصوص الرواية، مما أضرَّ بالنص الأصلي للقصيدة. وللأصمعيات شرح كتبه أيضاً ابن الأنباري بتحقيق أحمد محمد شاكر وعبد السلام هارون.

رابع المجموعات الشعرية (جمهرة أشعار العرب) لأبي زيد القرشي، وجمعت أواخر المائة الثالثة للهجرة، تضم تسعًا وأربعين قصيدة، وكلها من روائع الشعر العربي القديم في جاهليته وإسلامه، جاءت في سبعِ

(3) يقع الكتاب في جزء واحد، وصدر عن دار المعارف، القاهرة، وله أكثر من طبعة، وأفضلها الطبعة الخامسة التي صدرت سنة 1963.

مجموعات: أولها المعلقات، تليها المجهرات، ثم المنتقيات، فالمذهبات، والمراثي، والمشوبات، وآخرها المُلحمات، وكل مجموعة تشتمل على سبع قصائد.

المرحلة الثالثة: مرحلة المختارات الشعرية:

كان طبيعياً أن تتغير الذائقة العربية بتغير العصور المختلفة والأوضاع التي تشهدها، خاصة في العصر العباسي، إذ تغيرت فيه أذواق الناس، ولم يَعِدْ أحدٌ يطيق الصبر على قراءة القصائد الطوال، فاكتفوا بتذوق القطع المختارة، مما أدى إلى ظهور مختارات تلبي رغبات الناس مرتبة على المعاني. فظهرت لنا المختارات الشعرية، وأقدم هذه المختارات حماسة أبي تمام (ت231هـ) التي صنفها تلبية لأبي الوفاء بن سلمة. والمقصود بالحماسة عنده كلما يتصلب الشجاعة من إقدام وحمية ونخوة وحث على الإقدام واحتمال المكاره عند الشدائد، ولربما لاحظ أبو تمام نوعاً من الفتور الذي دبَّ عصائب الناس في المرحلة العصيبة للدولة الإسلامية في العصر العباسي، وأن الأرواح وهنت، فألَّف كتابه ليُحمِّس الأمة، ويدرأ عنها الوهن الذي شبَّ فيها، أضف إلى ذلك محاولته إنصاف الشعراء المغمورين، بعد أن اهتم الرواة قبله بالشعراء المشهورين –الأصمعي والمفضل مثلاً–. ولم يكن تصنيف أبي تمام خبط عشواء، بل جعلها على عشرة أبواب بحسب موضوعاتها، وسمَّى كل نوع بابًا، وبدأها بالحماسة، والمراثي، والأدب، والنسيب، والهجاء... الخ. وللحماسة شروح عدة أكثرها شهرة شرح التبريزي (ت502هـ)، وشرح الأعلم الشنتمري (ت476هـ) أحد علماء الأندلس.

ولأبي تمام مختارات أخرى اسمها (الوحشيات) سار فيها على نهج الحماسة، حتى دعيت بالحماسة الصغرى، في حين كانت تسميتها بالوحشيات تشبيهًا لها بأوابد الوحش التي تنفر من مجتمعات الناس، وبقيت أقل شهرة من الحماسة، التي عمد الكثيرون إلى تقليدها اختياراً وتصنيفاً، منهم البحتري (ت205هـ)، وأبو السعادات هبة الله بن الشجري (ت542هـ) في حماسته المعروفة باسمه (حماسة ابن الشجري)، و(الحماسة المغربية) لصاحبها أبي العباس أحمد بن عبد السلام الجروالي، وتُعرف بمختصر (كتاب صفوة الأدب ونخبة ديوان العرب)، كما تعرف بـ(حماسة الجرّاوي) و(الحماسة البياسية).

ولا يزال الأدباء يجمعون المختارات الشعرية تذكرة لهم أو تزكية لأذواقهم، ولعل أشهر هذه المختارات تلك التي قام بجمعها محمو سامي البارودي في نهاية القرن التاسع عشر، وجمع فيها ما اختاره من شعر ثلاثين شاعرًا من فحول شعراء المولدين.

أما في العصر الحديث في فيُعد الإصدار الكبير الذي قامت به مؤسسة البابطين بمناسبة احتفال الكويت باختيارها عاصمة للثقافة العربية عام 2001م أضخم ما وصلنا من المختارات الشعرية، ويضمَّ مختارات لشعراء الوطن العربي في القرن العشرين، صدرت في خمسة مجلدات، يضم كل مجلد مختارات لعدد من

الأقطار العربية حسب ترتيبها الأبجدي.

موقع الأندلسيين من المختارات الشعرية ؟

سؤالٌ يفرض نفسه: أين كان الأندلسيون من المختارات الشعرية لشعرائهم وأدبائهم؟

إن الجزء الكبير من هذا الذنب يقع على عاتق الأندلسيين أنفسهم، إذ اتخذوا ألقاباً مشرقية، فعندما يعجبون بشخصية أندلسية يضعون لها اسم شخصية مشرقية توافق مكانته، مثل: ابن هانئ: متنبي المغرب، ابن زيدون: بحتري المغرب، الأعمى التُطيلي: معرِّي المغرب، حمدة بنت زياد: خنساء المغرب، وهذا ما يسميه المستعرب هنري بيرس (بالسراب المشرقي) [4]. أضف إلى ذلك أنه لم يكن لدى الأندلسيين تقدير كبير لشعرهم ونثرهم، إذ لم يهتموا بجمع الدواوين، ولا المجموعات الشعرية، إلا أن ابن فرج الجياني (تـ366هـ) ، هو الذي حاول أن يعالج هذا النقص إذ قام بتأليف كتاب الحدائق، ولم يكن هذا الكتاب المؤلف الأول في ردة الفعل ضد المشرق، بل كانت هناك كتب أخرى سبقته في هذا الإطار ولسوء الحظ فُقِد معظمها، منها: (الطبقات في شعراء الأندلس) لعثمان بن ربيعة الاشبيلي(تـ310هـ)، وكتاب (شعراء الأندلس)، ومؤلفه أبو سعيد عثمان بن سعيد الكناني (تـ320هـ) لكن المختارات الشعرية الأندلسية توالت فظهرت مؤلفات منها:(البديع في وصف الربيع) لأبي الوليد إسماعيل بن محمد الحميري (تـ440هـ)، وجمع فيه ما فاضت به قرائح أدباء الأندلس في وصف الربيع نظماً ونثراً ، وكتاب (التشبيهات من أشعار أهل الأندلس) للكتاني – وهو محو دراستنا–. واستمر الإبداع الأندلسي ليصل ذروته في القرن الهجري الثامن، إذ ظهر مؤلَّف (جيش التوشيح) للسان الدين بن الخطيب (تـ776هـ)، و(عدة الجليس ومؤانسة الوزير والأنيس) لعلي بن بشري الغرناطي، وكلاهما من وفيات القرن الثامن، وقد ضمَّ كل كتاب منهما مجموعة متميزة من الموشحات الأندلسية.

التعريف بمؤلف الكتاب ومنهجية التأليف:

لم ينل كتاب "التشبيهات من أشعار أهل الأندلس" لأبي عبد الله محمد بن الحسن بن الحسين الكتاني المِذْحِجِي الطبيب حظَّه من عناية الباحثين؛ بوصفه أحد كتب المختارات في الشعر الأندلسي؛ التي يمكن أن تعكس جانباً من السلوك الفني الجمالي لدى الأندلسيين سواء أكان على مستوى الإبداع الفني باستجلاء ملامح الخبرة الجمالية التي أنتجها الشعراء؛ أم على مستوى التلقي بالكشف عن سمات الذوق

(4) أشار إلى ذلك إلياس تيريس ساديا في دراسته: ابن فرج الجيَّاني وكتابه الحدائق، ترجمة. عدنان محمد آل طعمة، مجلة التراثالعربي، مجلة فصلية تصدر عن اتحاد الكتاب العرب، دمشق، ع. 47، 11 أبريل.1992.

الجمالي والنقدي في البيئة الأندلسية. لم يشتمل الكتاب على مُقدِّمةٍ للمؤلِّف توضح لنا سبب تأليف الكتاب، إلا أن ميل ابن الكتاني إلى التقسيم الإقليمي حين حصر نفسه في نطاق الأندلس يجعلنا نرجِّح سبب تأليف الكتاب بدافع إبراز الهوية الأندلسية، وقدرتها على مضاهاة المشارقة في أدبهم.

وقبل الحديث عن الذوق الجمالي في الكتاب؛ حريٌّ بنا أن نُعرِّف بمؤلف هذا الكتاب والمنهج الذي اتبعه في كتابه.

1. التعريف بالمؤلِّف:

يُشير د.إحسان عباس محقق الكتاب –معتمداً على الورقة الأولى من مخطوطة الكتاب– أن مؤلف الكتاب هو الشيخ أبو عبدالله محمد بن الكتاني بن الطبيب، ولم يذكر اسم أبيه، وقد ترجم القاضي صاعد لمن كنيته أبو عبدالله واسمه محمد وشهرته ابن الكتاني، فذكر أن أباه هو "الحسين"، وقال في ترجمته: " كان أخذ الطب من عمِّه محمد بن الحسين، وطبقته، وخدم به المنصور بن أبي عامر وابنه المظفَّر، ثم انتقل في صدر فتنة قرطبة إلى مدينة سرقسطة واستوطنها. كان بصيراً بالطب مُتقدِّماً فيه، ذا حظٍ من المنطق والنجوم وكثير من علوم الفلسفة"[(5)].

تتلمذ ابن الكتاني على يد الكثير من علماء عصره، فأخذ المنطق عن محمد بن عبدون الجبلي، وعمر بن يونس بن أحمد الحراني، وأحمد بن حفصون الفيلسوف. وتطرَّق مُحقِّق الكتاب في مقدمة الكتاب إلى قضيتين هامتين:

الأولى: مسألة تحديد الاسم الصحيح لمؤلف الكتاب.

إذ وقع الخلط في اسم أبيه، فأشار محقق الكتاب إلى أن الحميدي صاحب كتاب(جذوة المقتبسفي ذكر ولاة الأندلس) ترجم لرجل آخر كنيته أبو عبدالله وشهرته "ابن الكتاني"، واسمه "محمد"، ولكن أباه اسمه "الحسن" وهو منسوب إلى مذحج ويقال له المذحجي، ونقل هذه الترجمة الصفدي. ويرى د.إحسان عباس أن الخطأ سهل الوقوع، وأن مؤلف الكتاب هو أبو عبدالله محمد بن الحسن بن الحسين، وهو أستاذ ابن حزم في المنطق، واعتمد في ترجيح كلامه على ما أورده صاعد البغدادي في ترجمته للكتاني. وللكتاني رسائل وكتب في الطب والمنطق، وتجاوز صاعد البغدادي عن ذكرها نظير شهرتها، ووصفها ابن الأبَّار أنها (معروفة فائقة الجودة عظيمة المنفعة سليمة) منها كتاب: (محمد وسعدى) الذي قال عنه الضبي: مليح في معناه.

الثانية: تاريخ وفاة المؤلف.

(5) التشبيهات من أشعار أهل الأندلس، أبو عبد الله محمد بن الكتاني الطبيب، تحقيق. د. إحسان عبَّاس، دار الشروق، بيروت، ط. 2، 1981، مقدمة الكتاب، ص. 7.

ذكر المحقق أن الكتاني توفي قريباً من سنة 420هـ، عن عمر قارب ثمانين سنة. ورجَّح محقق الكتاب هذا التاريخ مستنداً على الشعراء الذين ساق لهم شعراً في كتابه، إذ ينتمون إلى الفترة الأموية والعامرية، وأبعدهم وفاة مثل: ابن درَّاج القسطلي، وعبادة بن ماء السماء، الذين نالوا الشهرة الأدبية في الفترة نفسها. وهذا التاريخ لا يختل في الكتاب إلا مرة واحدة، في معرض حديث الكتاني عن ابن خفاجة، إذ يقول: " وقال أبو إسحاق الخفاجي في الشمعة"، وهذا يعني أن المؤلف لا يمكن أن يكون قد توفي في الحدود التي قدرها د.إحسان عباس، لأن ابن خفاجة ينتمي إلى عصري ملوك الطوائف والمرابطين، فنبَّه محقق الكتاب في هذا الجانب إلى حقائق منها:

- أن الناسخ نبَّه إلى أنه يدرج في المتن شعراً ليس من الأم، وهو ما نجد عندما يُدرج مختارةً شعرية لأحمد ابن دراج :

ولو قَبِل الموتُ مِنَّا الفداءَ لضاق الأنام لها عن فِداءِ[6]

إذ يشير ناسخ المخطوط بعبارة (ليس من الأم) مما يعني أن الأبيات ليست من النسخة الأصلية وإنما مزيدة عليها. وهذا –وفقاً لرأي المحقق– يجعلنا نعتقد أن النسخة تعَّرضت في هوامشها لبعض الزيادات، ولا يُستبعد أن تكون أبيات الخفاجي منها.

- قد يكون أبو إسحاق الخفاجي شاعرا آخرا غير ابن خفاجة، إذ أن القطعة التي أوردها الكتاني غير واردة في ديوان ابن خفاجة، مما يثير شكَّاً في النسبة والاسم معاً.
- ليس من المعقول أن يُدرك المؤلف عصر ابن خفاجة؛ ويُهمل جميع شعراء عصر الطوائف أمثال: ابن زيدون، ابن عمَّار، وغيرهم، وبالتالي فإن مثل هذه الزيادات تُمثِّل عُنصراً دخيلاً على الكتاب، قد تلحق بالكتاب مع الزمن.

2. منهجية الكتاب:

يمثل كتاب (التشبيهات من أشعار أهل الأندلس) أوفى مجموعة شعرية وصلتنا تُمثِّل عصر بن أمية والعامريين حتى أواخر الفتنة البربرية في تاريخ الأدب الأندلسي[7]، وهي فترة لم تصلنا دواوين شعرائها، وكل

(6) التشبيهات من أشعار أهل الأندلس،ص274.

(7) التشبيهات من أشعار أهل الأندلس، ص.13-14.

ما نملكه من الشعر الأندلسي الذي يُمثِّلها قطع مبثوثة في كتب التاريخ والتراجم، وقطعا أوردها الثعالبي في (يتيمة الدهر). ويبدو أن الذي دفع الكتاني إلى تأليف هذا الكتاب هو الإحساس بالهوية الثقافية الأندلسية التي كانت خصائصها الإقليمية وملامحها الأندلسية قد أخذت تنمو إزاء الهوية المشرقية، خاصة منذ عهد الحكم المستنصر بالله (ت350هـ) الذي عرف بنزعته العلمية، وانماز عصره بالعلوم والآداب وإنشاء المكتبة الأموية التي كان يستجلب لها من كل قطر ما لا يحد ولا يوصف من المصنفات كثرة ونفاسة حتى قدر عددها بأربعمئة ألف مجلد [8]، مما ولَّد في نفوس الأندلسيين شعورا بالثقة وإحساسا باكتمال شخصيتهم الثقافية ، الأمر الذي دفعهم الى التأليف والإبداع من أجل الدفاع عن هذه الشخصية ضد التجاهل والاتهام بالنقص والقصور، وأعان ذلك على التفات الأدباء والنقاد الأندلسيين أنفسهم إلى التأليف فيما يمكن تسميته "شعر الأندلسيين" [9].

يتناول الكِتاني نماذجاً من التشبيهات في شعر أهل الأندلس في مجالات عديدة؛ منها: تشبيهات السماء، والنجوم، والإبل، والخيول، والنساء، والجوارى، وغيرها، مع ترجمة لشعراء الأندلس الوارد ذكرهم، وكشافات بالأعلام والأماكن والتشبيهات.

تقوم منهجية الكتاب على تقسيم الكتاب إلى ثلاثة أجزاء، يسوق الكتاني فيها تشبيهاته الشعرية المنتخبة دون تقريظ أو تعليق، تضم هذه الأجزاء مقطعات لواحد وتسعين شاعراً، وستة وستين باباً من أبواب التشبيه تعرض لموضوعات متنوعة متدرجة، يقترن بعضها ببعض في الجزأين الأول والثاني، في حين يعوزها هذا التدرج والاتصال في الجزء الثالث، وهي تتناول على الإجمال الطبيعة والإنسان، وبعض مظاهر الحياة الحضارية، والأخلاق والسلوك الاجتماعي والحرب وأدواتها. يستهل الكتاب ببابٍ من التشبيه في السماء والنجوم والقمرين، يعقبه بأبوابٍ أخرى من التشبيه في انبلاج الصبح، والريح، والبرق، والرعد، والسحاب والمطر، والربيع والزهر، والورد، وتغريد الطير في الرياض ووصف الحمائم، ثم في الأنهار والجداول والمياه الجارية، ووصف القصور والبساتين والأشجار، والناعورة والرحى، وفي المأكولات من فواكه وغيرها، وفي الشراب وأوصاف الخمر، ووصفات الكؤوس والأقداح والسقاة والندامى والقيان والمغنين، والعود والطنبور وسائر المعازف، واصِلاً ذلك بباب من التشبيه في الشعر؛ لكونه عنصراً أصيلاً في هذه الأجواء، ومكملا لهذه اللوحة الحيوية، ثم تلاه الجزء الثاني من الكتاب الذي ابتدأ بباب من التشبيه في وصف الحسن ومفرداته كالشعر وسواده وشقرته، وأصداغ القيان وعذر الغلمان، وإشراق الوجه وتشبيه الخدود والخيلان، وفتور العين

(8) نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، المقري التلمساني، تحقيق. إحسان عباس، دار صادر، بيروت، 1968، ج.1، ص395.

(9) تاريخ النقد الأدبي عند العرب، د.إحسان عباس، دار الشروق للنشر والتوزيع، الأردن، ط. 2، 1993، ص.480.

ومرضها وغنجها، والثغر وطيب الريق، ومشي النساء وتشبيه القدود، والحديث الحلو والخصور والأرداف، ثم وصل ذلك بوصف أحوال المحب كالوداع والبكاء وطول الليل والسهر ومراعاة النجوم والخيال والنحول، والوقوف على الديار والربوع، وأتبعه بأبواب من التشبيه في وصف النيران والشتاء والصقيع، وصفات الإبل والمسافرين، والسراب والبحر والسفن، والطرد والحيات والخيل، والسيوف، والرماح، والقسي والنبال، والدروع البيض، والرايات والتجافيف[10]، والطبول والحرب ووصف الظعان والضراب والجيوش والفتوح والرؤوس والمصلوبين، والخوف والمهابة...، حتى يلقانا الجزء الثالث من الكتاب وقد استهله بأبواب من التشبيه في مجالات مختلفة كالدواة والقلم والصحيفة والسكين، والمذبة والمروحة والجود والبخل، والخوان، والأَكَلَةَ والطفيليين، وهجو النساء والمغنيات، والثقلاء، والكَذَبَة، والطيلسان والدرهم. ثم وصله بأبواب من التشبيه في الاعتبار بفناء الناس وتقلب الدهر بهم، والشيب والهرم، وذم الدنيا وذكر الموت، وصفة الموتى والأجداث حتى ينتهي الكتاب بباب يعرض شواذ من التشبيهات تقل نظائرها.

وكأن الكتاني أراد بذلك إحصاء مجالات الشعر التي اتصلت بها ملكة التصوير لدى الأندلسيين، وإبراز مبلغ عناية الشاعر الأندلسي بالصورة منذ هذا الطور المبكر من تاريخ الشعر في الأندلس، حتى أصبح طلب الصورة والإلحاح عليها هدفاً جوهرياً وغايةً كبرى؛ يسعى إليها الشاعر والناقد على حد سواء [11]، ذلك لأن الاهتمام بالتشبيه " تحوَّل من الرغبة في التعبير بما يقع في دائرة الحس من الأشياء إلى الرغبة في التشبيه للتشبيه في عصور الحضارة والازدهار للاستمتاع بالصورة التي يبدعها الشاعر، وللإغراب في تقصي وجوه الشبه، والإبداع في خلق العلاقات، وقد بدأ الاهتمام بالتشبيه لهذا الغرض في الشعر العربي منذ القرن الثالث وطوال القرون التالية"[12]. ولم يلتزم الكتاني بمنهجيته في تقسيم كتابه، إذ في الكتاب الثاني الذي يبدأ بالباب التاسع عشر وينتهي بالباب السابع والثلاثين يتناول الجمال والحب، لكنه يقطع هذا الحديث بالباب 27 الذي يتحدث فيه عن جمال الأعضاء، فيتحدث عن طِيبِ الحديث، ثم يعود إلى ذكر الخصور والأرداف. أضف إلى ذلك في الجزء الثالث الذي يبدأ بالباب الثاني والخمسين، يتناول الكتابة وأدواتها وبعض الآلات الحضارية الأخرى كالمذبة والمروحة، ثم ينتقل فجأة إلى الحديث عن الأخلاق من جود وبخل وأصناف الناس كالطفيليين والثقلاء. وهنا يرى د.إحسان عباس أن الكتاني أعياه الالتزام بشيء من الترتيب

(10) التجافيف: جمع التِّجْفاف، والتُّجفاف، وهو ما يوضع على الخيل من حديد وغيره. انظر: لسان العرب،ابن منظور، دار صادر، بيروت، ط.1، 1992، ج.9، مادة (جفف).

(11) التشبيهات من أشعار أهل الأندلس، مقدمة المحقق، ص. 22.

(12) غرائب التنبيهات على عجائب التشبيهات ، علي بن ظافر الأزدي، تحقيق. محمد زغلول سلام ومصطفى الصاوي الجويني، سلسلة ذخائر العرب، ع. 45، دار المعارف، القاهرة، 1983، مقدمة التحقيق، ص. 38 .

المتدرج الذي التزمه في بداية كتابه، إذ حشد في الجزء الثالث أبواباً متفرقة[13] .

3. كتابان آخران في التشبيهات:

يشير د. إحسان عباس إلى أن المصادر لم تذكر كتاب ابن الكتاني في التشبيهات، لكنها ذكرت كتاباً آخراً في (التشبيهات من أشعار أهل الأندلس) لأبي الحسن علي بن محمد بن أبي الحسين الكاتب، إذ يقول فيه الحُميدي: "مشهور بالأدب والشعر، وله كتاب في التشبيهات من أشعار أهل الأندلس، كان في الدولة العامرية وعاش أيام الفتنة، وهذا يشي إلى أن أبا الحسين كان مُعاصراً لابن الكتاني، فيتساءل محقق الكتاب إذا كان المؤلِّفان توفَّرا على موضوع واحد، وعن مدى الصلة التي تجمع الكتابين[14]. ويستند على ما نقله ابن الأبَّار في ثلاثة مواضع من كتابه (الحِلة السراء) عن كتاب الحسين، ويُسميه (الفرائد في التشبيه من الأشعار الأندلسية)، إذ يورد في الموضع الأول بيتين لمروان بن عبد الرحمن أبي عبد الملك الملقَّب بـ(الطليق)، وهما يمثلان القطعة التاسعة والثلاثين من كتاب الكِتاني التي يقول فيها:

وقال مروان بن عبد الرحمن :

فكأنَّ الغمامَ صبٌّ عميدٌ أنَّ بالرعدِ حُرقةً واشتكاءَ
وكأنَّ البروق نارُ جواهُ والحيا دَمعُهُ يسيلُ بكاء[15]

وُيورد في الموضع الثاني بيتين لـ (لبّ بن عبيدالله)، ويوافقان القطعة (79) من كتاب الكتاني التي يقول فيها:

صابَحتها والروضُ يَسطَعُ مِسكُهُ فكأنه بالليلِ باتَ مُغَلَّفا[16]

أما القطعة الثالثة فَلَمْ ترد في كتاب الكِتاني، وهنا يرى محقق الكتاب أنه ليس من المستغرب اتحاد الكتابين في إيراد مختارات متشابهة ما داما متعاصرين، ويستبعد أن يكون الكتابان كتاباً واحداً، ويستند في هذا الجانب إلى شعرٍ أورده الكتاني لمن اسمه علي بن أبي الحسين، فإذا صح أنه هو صاحب (الفرائد في

(13) التشبيهات من أشعار أهل الأندلس، ص. 16 .
(14) التشبيهات من أشعار أهل الأندلس ، ص.12 .
(15) المرجع نفسه، ص. 32.
(16) المرجع نفسه، ص. 51 .

التشبيه من الأشعار الأندلسية) فهذا يعني أننا نملك كتابين في التشبيهات لا كتاباً واحداً.

الذوق الجمالي عند الكِتاني من خلال مختاراته الشعرية:

إن الوقوف على الإبداع الأندلسي واستجلاء ملامحه الجمالية من زاوية، ومستوى التلقي بالكشف عن سمات الذوق الجمالي والنقدي في البيئة الأندلسية من زاوية أخرى هما وجهان لعملة واحدة، فكل شاعر هو مبدع متذوق في آن، ناهيك عما تميَّز به الأندلسيون أنفسهم، على تباين طبقاتهم من شغف بالأدب وحب للشعر، حتى وجدنا صاحب الذخيرة في مستهل كتابه يشير إلى اشتهار الأندلس بذلك قائلاً: "فلا يكاد بلد منها يخلو من كاتب ماهر، وشاعر قاهر"[17].

من هذا المنطلق نجد أن كتاب (التشبيهات من أشعار أهل الأندلس) تفوق عما كُتِب قبله في هذا الجانب، إذ يتضمن مادةً شعرية منتخبة لطائفة من شعراء الأندلس، ينتمون إلى فترة زمنية تقدر بنحو القرنين وربع القرن من تاريخ الأدب العربي بالأندلس، بدءاً بسنة (200هـ)، – مُتجاوِزاً الكتاني النماذج الشعرية المبكرة الطارئة في عصر بني أمية باعتبارها إرهاصات أولية– مروراً بالدولة العامرية حتى نهاية الفتنة البربرية سنة (422هـ). فعلى الرغم من غزارة النتاج الشعري في هذه الفترة إلا أن جانباً كبيراً منها لا يزال متناثراً في كتب التراجم والتاريخ، وحَّكم الكِتاني حسَّه النقدي في هذا الجانب، وإلا لجمع لنا كتابه في أكثر من مجلَّد. من هنا تبرُزْ أهمية كتاب التشبيهات من كونه– وفقاً لرأي المحقق– أوفى مجموعة شعرية يمكن أن تساهم بجانب ما أُثر من دواوين شعرية في حدود المجال الشعري والفني لهذه المرحلة[18]، ويعين استكناه مادتها التشبيهية على تجلية كثير من خصائص الذوق الجمالي الأندلسي آنَ ذاك من جانب الأنا (المبدع) والآخر (المتلقي)، اللذين يشكِّلان في نهاية الأمر ذوق المجتمع أو ما يطلق عليه حالة (النَحْن)، "إذ تتوحد الأنا والآخر ويشتركان في حالة نفسية واحدة تتفق فيها وجهات النظر والآراء والانفعالات"[19]، وهو ما نجده في التشبيه، الذي له سلطة كبيرة على نفس الشاعر العربي القديم، والاهتمام به في النقد العربي القديم كبير جداً إلى حدٍّ يؤثَر معه شعر الشاعر بالاختيار والتقديم للإصابة في التشبيه. ولفت د.إحسان عباس إلى عناية النقاد الأوائل بالتشبيه، واستدل بناقد مثل الأصمعي (ت210هـ) الذي اشتهر بين رواة عصره بذلك، وتمييزه

(17) الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، أبو الحسن علي بن بسام الشنتريني، تحقيق. إحسان عباس، الدار العربية للكتاب، ليبيا، تونس، ط. 1، 1981، ج. 1، ق. 1، ص. 33.

(18) التشبيهات من أشعار أهل الأندلس، مقدمة المحقق، ص. 19 .

(19) سيكولوجية التذوق الفني، مصيري عبد الحميد حنورة، دار المعارف، القاهرة، 1985، ص. 22

بالاستحسان عددا من تشبيهات الشعراء على مر الزمن لما فيها من جمال الصورة التشبيهية[20]، وجعل قدامة بن جعفر(ت337هـ) التشبيه فنّاً من فنون الشعر العربي كالمديح والهجاء والمراثي والوصف، واستشهد بطائفة من التشبيهات التي نعتها بالجودة والحسن[21]. وبلغ حد العناية بالتشبيه في النقد العربي القديم أن جعل المرزوقي الأصفهاني(ت421هـ) "المقاربة في التشبيه أحد الأركان الأساسية السبعة لعمود الشعر العربي"[22]. وليس غريباً في الأندلس أن يُعنى الذوق الأندلسي بالصورة التشبيهية عناية كبيرة، وأن يسوق أبو عبد الله الكتاني – في بداية القرن الهجري الخامس– مجموعه الشعري يتتبع فيه عيون التشبيهات في أشعار الأندلسيين أنفسهم، من عهد بني أمية حتى عصره، مُنطلقاً في تشبيهاته من ذوقه الجمالي والنقدي الذي يعد جزء من الذوق الجمالي العام الغالب على البيئة الأندلسية آن ذاك، والذي كان من أهم ملامحه التشبث بالصورة، وبخاصة الصورة التشبيهية المبتكرة التي تقترن حركتها الخيالية بالغرابة والطرافة وفق قانون توليد المعاني واختراعها، بما يستثير إعجاب النفس ودهشتها.

التشبيهات عند الكتاني:

صدر الكتاني في اختيار تشبيهاته عن المعنى اللغوي لمصطلح التشبيه، غير مفرّق خلاله بين التشبيه والتمثيل؛ لاشتراكهما في أصل الوضع اللغوي، ولاسيما أن التفرقة بين المصطلحين لم تظهر إلا عند البلاغيين المتأخرين[23]، ويُفسِّر عبد القاهر الجرجاني (ت471هـ) أسس الغرابة والابتكار في صناعة الصورة التشبيهية وأبعادها الجمالية والنفسية، مؤكِّداً منذ البداية أن التشبيهات العامة المشتركة أو الخاصة المقصورة على قائل بذاته لا يمكن أن تُثير حساسية المتلقي، وتُحرك قوى الاستحسان فيه ما لم يكن وجه الشبه في التشبيه معقوداً بين المشبهات المتباعدة المختلفة الجنس التي يتحقق الجمع والتقريب بينها في لطف وذكاء، وهو مذهب على حد تعبيره "ألطف مأخذا وأمكن تحقيقا"[24]، يقول الجرجاني: "إن لتصوير الشبه من الشيء في غير جنسه وشكله، والتقاط ذلك من غير محلته، واجتلابه إليه من الشق البعيد باباً آخر من الظرف واللطف، ومذهباً من مذاهب الإحسان لا يخفى موضعه من العقل... فإن التشبيهات سواء كانت

(20) تاريخ النقد الأدبي عند العرب، د.إحسان عباس، دار الشروق للنشر والتوزيع، الأردن، ط. 2، 1993، ص. 43.
(21) نقد الشعر ، أبو الفرج قدامة بن جعفر ، تحقيق. كمال مصطفى، مكتبة الخانجي، القاهرة، 1978، ص. 58 .
(22) شرح ديوان الحماسة، المرزوقي الأصفهاني، تحقيق. عبد السلام هارون وأحمد أمين، دار الجيل، بيروت، ط. 1، 1991، ج. 1، ص. 9 .
(23) معجم المصطلحات البلاغية وتطورها، د. أحمد مطلوب، مطبعة المجمع العلمي، بغداد، 1986، ج. 2، ص. 166
(24) أسرار البلاغة، عبد القاهر الجرجاني، تحقيق. محمود محمد شاكر، دار المدني، جدة، المملكة العربية السعودية،ط.1، 1991، ص. 129.

عامية مشتركة، أم خاصية مقصورة على قائل دون قائل، تراها لا يقع بها اعتداد، ولا يكون لها موقع من السامعين ولا تهز ولا تحرك حتى يكون الشبه مقرراً بين شيئين مختلفين في الجنس، فتشبيه العين بالنرجس عاميٌ مشترك معروف في أجيال الناس،..، وتشبيه الثريا بما شبهت به من نقود الكرم المنوِّر واللجام المفضض، والوشاح المفصل،..، والتباين بين المشبه والمشبه به في الجنس على ما لا يخفى"[25].

إن المتذوق لمختارات الكتاني من التشبيهات يلحظ تنوع صور الابتكار والاختراع والغرابة والإمتاع الفني في التشبيهات التي يوردها؛ نحو ما نلقى في وصف الطبيعة ومظاهرها المختلفة وما يتصل بها، يقول أحد شعراء الدولة العامرية يُدعى سعيد بن عمرون في وصف الهلال:

والبدر في جوِّ السّماءِ قد انطَوى طَرَفاهُ حتى عادَ مثْلَ الزَّوْرَقِ
فتَراهُ من تَحتِ المِحاقِ كَأَنَّما غَرَقَ الجَمِيعُ و بَعْضُهُ لمْ يَغْرَقِ

هذه الصورة التشبيهية التي يقترن فيها مشبَّهان متباعدان مختلفان في الجنس، تذكرنا بما نحاه ابن المعتز في الغرابة والابتكار عند قوله:

وانظر إليهِ كزَوْرق من فِضَّةٍ قد أَثْقَلَتهُ حُمولَةٌ من عَنْبرِ

ابن المعتز في الصورة السابقة أكثر اعتناء باستجماع مفردات الجمال التي ترضي الحواس[26]، وتُراعي التناسب الشكلي بين المشبه والمشبه به، إذ شبَّه الهلال الذي ظهر على هيئة المنحى في خضم السماء الأزرق بزورق فضي يسبح في الماء وهو محمل بالعنبر، في حين أن الشاعر الأندلسي كان له فضل التحديد والاستقصاء في آن أكثر من موقف يرسم فيه صورة الهلال، وزاد على ابن المعتز زيادةً فيها نوع من الطرافة تولَّد من خلالها معنى جديد أبدى صورة الهلال في جو السماء في أثناء المحاق زورقاً سابحاً غرق بعضه وطفى بعضه الآخر فوق صفحة الماء.

وتبرز سمة الغرابة والطرافة فيما يورده الكتاني للشاعر يوسف بن هارون الرمادي[27](ت403هـ) من

(25) المرجع نفسه، ص. 130.
(26) الأدب وفنونه، عز الدين إسماعيل، دار الفكر العربي، القاهرة، 1978، ص. 14.
(27) هو الشاعر القرطبي أبو عمر يوسف بن هارون الكندي الملقب بأبي جنيش، يعرف بالرمادي نسبة إلى رمادة ، وهي موضع بالمغرب. وكان كثير الشعر الحسن مشهور عند العامة والخاصة هناك. انظر ترجمته:

تشبيهات مبتكرة كثيرة تتناثر عبر أقسام الكتاب الثلاثة، وقد عني في شعره بطرافة المعنى وغرابة الصورة، والمبالغة في هذا وتلك مع الاعتناء بالمحسنات البديعية[28]، يقول واصفا المطر:

كأَنَّ سُلُوكَ الغَيْثِ عندَ اتصالِهِ بأسفلَ من أَعلى سَدًى غَيْرُ مُلْحِمِ
سُلُوكٌ كذَوْبِ الدُّرِّ تُعْنَى بِفَتْلِها ولكن فَتْلُها غَيْرُ مُبْرِمِ

يصف الرمادي في هذه الصورة زخات المطر في اتصال تساقطها بأسفل من أعلى بخيوط طولية غير ملتحِمة الأثناء، انتظمت فيها قطرات الماء تلمع كاللآلئ حتى إذا ما صافحتها يد الرياح مزجت بينها وفتلتها فتلا غير مُحكم. يبدو للوهلة الأولى أن الشاعر يرسم صورة سريعة الالتقاط والرصد بما يوافق عبارة الحميدي فيه أنه كان سريع القول[29]، بمعنى أنه طبع على التعبير السريع عن الخواطر والصور والانفعالات[30]، فالواضح أن الرمادي شاعر طَبْع، وإبداعه إبداع صورة، لأنه لم يكن ينقب عن المعنى الجديد متعمداً، بل كان المعنى يتدفق تدفقاً طبيعياً بين يديه[31].

وأورد الكتاني أبياتا تحمل الصنعة الشعرية المشوبة بالإغراب والخيال الطريف الذي أكسب التشبيه مسحة إنسانية رقيقة، للشاعر أبي بكر يحيى بن هذيل[32] (ت389هـ) بقوله:

والرَّوْضُ قد أَلِفَ النَّدَى فكأَنَّه عيْنٌ تَوَقَّفَ دمْعُها لِرقيبِ
متخالف الألوان يجمع شَمْلَهُ ريحانِ ريحُ صَبا وريحُ جَنُوبِ

وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمدبن أبي بكر بن خلكان، تحقيق. إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ج. 7، ط. 1، 1994، ص. 225.

(28) الأدب الأندلسي من الفتح إلى سقوط الخلافة، أحمد هيكل، دار المعارف، القاهرة، ط. 11، 1994،ص. 290.

(29) جذوة المقتبس في تاريخ علماء الأندلس، الحميدي (ت 488 هـ)،تحقيق. روحية عبد الرحمن، دار الكتب العلمية، بيروت، ط.1، 1997، ص. 589.

(30) الأدب الأندلسي من الفتح إلى سقوط الخلافة، ص. 301- 302.

(31) تاريخ الأدب الأندلسي، محمد زكريا عناني، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، 1999، ص. 95- 96.

(32) هو الشاعر أبو بكر يحيى بن هذيل بن عبد الملك ، وصفه الحميدي أنه من أهل العلم والأدب والشعر، غلب عليه الشعر حتى صار مشهورا به. انظر ترجمته : تاريخ علماء الأندلس، ابن الفرضي. أبو الوليد عبد الله بن محمد (ت 403 هـ)، تحقيق. روحية عبد الرحمن، دار الكتب العلمية، بيروت، ط.1، 1997، ج. 2، ص. 195.

فكأنَّما الصَّفراءُ إذْ تُومِي إلى البيضاء صَبٌّ جانحٌ لحبيب[33]

يُشبِّه الشاعر الروض وقد انتثر حب الندى الأبيض على الأزهار المنتشرة على صفحة بساطه الأخضر حتى اعتاد ذلك، وأَلِف بعين المحب العاشق التي ترقرق الدمع في باطنها، وسكن خشية أن يراها الرقيب، ثم يصف الأزهار المختلفة الألوان التي تعاورتها الرياح حتى أطلَّ بعضها على بعض، فبَدَتْ الصفراء منها إزاء البيضاء مثل الصبِّ الذي اصفرَّ وجهه من فرط الجوى، وطفق يرنو إلى وجه محبوبته الأغر الجميل ويجنح لها.

ويُورد الكتاني في مجموعه الشعري تشبيها آخر ليحيى بن هذيل أكثر رقة وابتكارا حين يتسع به الخيال راميا إلى الإغراب والإطراف، فيسوق هذه الصورة البديعة التي يطبعها بطابع الفن والجمال مشبها حال الحمام– الذي تعددت ألوان ريشه بين الأخضر والأحمر والأبيض حتى بدت كفصوص زمرُّد وعقيق يجاورها حب الغيم الأبيض– حين يرتفع طائراً عن الغصن ثم ينزل يمسُّ الأرض بصورة المصلي حين يستوي قائماً في صلاته ، ثم ينزل للسجود:

غَنَّى وفوْقَ جَناحيْهِ سقيطُ نَدَى والغيْمُ يُنْجِزُ للحَوْذانِ ما وَعَدَا
يَهْفُو بِهِ خُطُوطُ ريحَانٍ تُغَازِلُهُ في الجَوِّ رِيحٌ فَتَلْوِي مَتْنَهُ أَوَدَا
إذَا استقلَّ ومسَّ الأرْضَ تَحْسِبُهُ مُصَلِّياً إنْ تَلَقَّى سَجْدَةً سَجَدَا[34]

نماذج صور الابتكار في التشبيهات:

من صور الابتكار التي تقترن بالغرابة والغوص على المعاني، وتلقانا في كتاب التشبيهات ما يتعلق بوصف مظاهر العمران في الأندلس كالقصور– وما يلحق بها من النواعير والصهاريج والسواري– وغيرها من الأبنية الفخمة التي تجلت فيها روعة العمارة الإسلامية في الأندلس، مثل مدينة الزهراء التي بناها الخليفة الناصر، وتغنى بها الشعراء ومنها ما ذكره بن هذيل خالعاً على مظاهرها المعمارية مجموعة من التشبيهات المبتكرة الغريبة التي مدحت جمالها وصنعتها المتقنة، إذ تراءت له منحنيات أبنية الزهراء كجناحي الطائر حين يحركهما ليجلبا له ريحا طيبة تخفف من وقع حرارة الشمس على جسده، كما يشبه سواريها الدقيقة بنساء نحيلات الجسم يشكون الضنى والهزال، ثم يخال

(33) التشبيهات من أشعار أهل الأندلس، ص. 55 .
(34) التشبيهات من أشعار أهل الأندلس، ص. 62.

النخيل في قوامه وجمال جريده وورقه المتدلي واحتجابه عن أيدي الناس لبُسُوقه وشموخه كعذارى حسان ممشوقات القد حُجِبْن في ستر مزدان يُرْجلن شعورهن الشقراء المنسابة على شحمة الأذن، يقول:

كأنَّ حَناياها جَنَاحَا مُصفِّقٍ إذا الشمْسُ أرْخاهُمَا نَـشْرا
كأَنَّ سوَاريها شكَتْ فتْرةً الضَّنى فَباتَت هضيماتِ الحَشَا نُحَّلاً صُفْرَا
كأنَّ النخيلَ الباسِقاتِ إلى العُلا عذارى حجالٍ رجَّلَتْ لِمَماً شُقْرَا[35]

وأُولع الأندلسيون بوصف الخمر وأدواتها كما فعل الشعراء المشارقة، في طليعتهم أبو نواس، إذ يعد "أستاذ فن الخمرية في الشعر العربي غير مدافع سواء من حيث الكمية أو من حيث الكيفية"[36]، لكن ما ميَّز الأندلسيين في هذا الجانب، إلمامهم في وصف الخمر بمجموعة من التشبيهات الغريبة التي تنم على دقة تصوير الشاعر الأندلسي، وقدرته على الرسم بالكلمات، والنفاذ إلى عدة صور مبتكرة يحرص فيها على التقاط وجه الشبه بين أطراف متباعدة في الجنس، ومن هذه التشبيهات التي يوردها الكتاني في وصف الخمر ما ساقه محمد بن خطاب النحوي مشبِّهاً الخمرة وهي تتوهج في الكأس، –تدور على الشاربين فتتناولها أكفهم– بنجوم الليل المنتظمة في فلك دوار، يقول:

كأسٌ تُجَلِّي الهمومَ سَوْرتُها شارِبُها في النديِّ كالمَلِكِ
كأنَّهَا والأَكُفُّ تَحملُها نجومُ ليْلٍ تدورُ في الفلَكِ[37]

ومن الطرافة ما ساقه جعفر بن عثمان المصحفي (ت372هـ) واصفا فعل الخمر حين تسري في الجسد بلدغ الحية، والأكثر من ذلك غرابة تصويره الخمر في شدة صفاء لونها حتى أطبقت على زجاج الإناء الذي يحتويها، وطابقته بحيث خفيت على شُرَّابها وبَدَتْ كما لو كانوا يشربون من إناء فارغ ، يقول:

صَفْراءُ تُطرِقُ في الزجاج فإن سَرَتْ في الجِسم هبَّتْ هبَّ صلٍّ لادغ
خفيَتْ على شُرَّابها فكأنَّما يجدون رَيّاً من إناءٍ فارغ[38]

(35) المرجع نفسه، ص. 76-77.
(36) تاريخ الأدب العربي، العصر العباسي الأول، شوقي ضيف، دار المعارف، القاهرة، ط. 6، 1976، ص. 234.
(37) التشبيهات من أشعار أهل الأندلس، ص. 91.
(38) المرجع تفسه.

ويعلِّق د.إحسان عباس على هذه الصورة قائلاً: "فإن اكتمال هذه الصورة بين إطراق الصِّل وانبعاثه وتشبيه الخمر به ليست من الصور التي نجدها في المشرق"[39]، وهذا يؤكد ما ذهبنا إليه إلى أن المختارات الشعرية التي اختارها الكتاني تدعو إلى التأمل في كل التشبيهات التي أوردها الكتاني بحيث أراد بها التفوق، وتوضيح خصوصيات الشاعر الأندلسي، وتميزه عن غيره من المشارقة. والتشبيهات التي أوردها الكتاني في باب الخمر كثيرة ومتعددة بتعدد صور التقاطها وجماليتها الفريدة.

كما يعرض الكتاني في مختاراته لمجموعة من التشبيهات المبتكرة التي صاغها الأندلسيون في وصف غرائب أشعارهم، ومنها وصف أحمد بن عبد ربه (ت328هـ) لإحدى منظوماته أنها مهذبة الألفاظ، قوية السبك، متقنة الإبداع، مصوغة على طريقة العرب القدامى، بيد أن صانعها أندلسي– ليس نجديًّا ولا كوفيا ولا بصْريًّا– حتى بدت كلؤلؤة ازدان بها وجه دينار هرقلي، وخص هرقل ملك الروم بذلك لأنه أول من ضرب الدرهم والدينار، يقول:

مَنْظُومةٌ هُذِّبَ ألفاظُهَا لَيْستْ من الشِّعْرِ الحِجَازِيِّ
لكنها في الصَّوْغ نَجْديَّةٌ صاحبُهَا لَيْسَ بِنَجْدِيِّ
كُوفِيَّةُ الإبداع بَصْرِيَّةٌ لغيرِ كوفيٍّ وبَصْرِيِّ
كأنَّها شَاذُورةٌ عُلِّقَتْ بوجهِ دينارٍ هِرْقَلِيِّ[40]

يُفرِّط ابن عبد ربه في شعره من الغوص على المعاني وتوليدها، وتطلّب الصورة الغريبة الطريفة، بل إن كثيراً من شعره مطبوع بالخفة والارتجالية، وثمة أخبار كثيرة عنه تدل على أنه كان ينظم ارتجالاً[41].

تشبيهات الجمال الإنساني:

يُورد الكتاني في مختاراته طائفةً كبيرة من التشبيهات التي تعرض للجمال الإنساني ومكملاته الحسية، وتوصف أيضاً بالإبكار والغرابة والغوص على المعاني على شاكلة ما ساقه يوسف بن هارون الرمادي واصفاً

(39) تاريخ الأدب الأندلسي، عصر سيادة قرطبة، ص. 119.
(40) التشبيهات من أشعار أهل الأندلس، ص.112.
(41) تاريخ الأدب الأندلسي، عصر سيادة قرطبة، ص. 194.

حسناء استغرقت تُفكِّر، واضعة كفَّها الشديد البياض على خدها الأحمر، حتى بدت تحجب ورد الخدّ بسوسن البنان الذي صيغت أطرافه من الفضة وأظافره من الذهب، يقول:

قَدْ وضَعَ الكَفُّ عَلَى خَدِّهِ مُفَكِّرًا منْ غَيْرِ أَشْجَانِ
كأَنَّمَا يَسْتُرُ عنْ نَاظِرِي بَنَانُهُ وردًا بِسَوْسَانِ
كأَنَّما أَطْرَافُهُ فضَّةٌ صِيغَ لها أَظْفارُ عِقْيانِ[42]

ونلمس هذه الغرابة والطرافة في بعض الصور التشبيهية التي تبعث على الضحك والتفكه والتندر مثل قول مؤمن بن سعيد (ت267هـ) متلهفا على أيام المصيف ومشبها لحيته السوداء –وقد خالطها التراب الأبيض– بذنَب حصان خالط لونه بياض:

لَهْفِي على أُنُفِ المِصِيفِ وطيبه وحَصائِدٍ منسوجة بالسّنبل
أيام أُقْبِلُ والسَّفَا في لِحْيَتِي فتخالُها ذَنَبَ الحصانِ الأشْعل[43]

يمكن من خلال إدامة النظر في نماذج التشبيهات –التي مثَّلنا بها من مختارات الكتاني– أن نلمس اقتران حركة تشكيلها بالغرابة والطرافة، وانحصار جهد الشاعر نتيجة ذلك في الإتيان بصورة تشبيهية مبتكرة وفق قانون توليد المعاني واختراعها، تتحقق فيها سمات المتعة الفنية التي تراعي التطابق في الأبعاد الحسية بين المشبهات، بغضِّ الطرف عن الفاعلية النفسية والتجانس الشعوري بين طرفي التشبيه، مما يؤكد أن جمال الصورة عندهم ليس مصدره القلب والرؤية الحدسية دائماً؛ بقدر ما ينجم عن العقل والرؤية الحسية غالباً؛ على نحو ما يقول عبيد الله بن إدريس (ت352هـ):

ومُعْتَرَكٍ تَخالُ النقْع فيه سِتارَةَ غادةٍ حسناءَ رَودِ[44]

فهنا نلحظ أن طرفي التشبيه في الصورة السابقة مجلوبان من مجالين مختلفين مما يحقق في الصورة التشبيهية عنصر الغرابة والطرافة. بَيْدَ أن المشبَّهين يثيران في النفس مشاعر مناقضة لكلٍّ منهما، إذ صورة

(42) التشبيهات من أشعار أهل الأندلس، ص. 120.
(43) التشبيهات من أشعار أهل الأندلس، ص. 264.
(44) المرجع نفسه، ص. 203.

(النقع) الذي تثيره سنابك الخيل فوق أرض المعركة تثير في النفس مشاعر التشاؤم والخوف والكراهية؛ بما يختلف تمام الاختلاف عن صورة (الستارة) التي تسدلها الحسناء الناعمة على وجهها؛ ليحجب عنها نظر الفضوليين والمتطلعين إلى رؤيتها، وما يثيره هذا المشهد في النفس من مشاعر التفاؤل والبهجة والحب.

ومن الملامح الجمالية التي طبعت الذوق الجمالي في الأندلس ووجَّهت بالتبعية ذوق الكتاني في اختيار تشبيهاته هو كَلفه الشديد بإيراد النماذج الشعرية التي تتلاحق فيها الصور التشبيهية وتتتابع؛ مستقصية جزئية المشهد الموصوف وتفصيلاته، اتكاءً على أداة تشبيه واحدة، ومما يمثل هذه الظاهرة في مختارات الكتاني قول المهند طاهر بن محمد يصف جملة من النجوم في السماء:

وليلٍ بتُّ أكلؤهُ بهيمِ كأنَّ علَى مفارقه غرابا
كأنَّ سماءهُ بحرٌ خضمٌّ كساه الموجُ ملتطماً حَبابا
كأنَّ نجومَهُ الزُّهْرَ الهوادي وجوهٌ أخْضَلت تبغى الثوابا
كأنَّ المستسرةَ في ذراه كمائنُ غارةٍ رَقَبتْ نهابا
كأنَّ النّجمَ مُعترضاً وُشاةٌ تُسارقُ فيه لحظاً مستترابا
كأنَّ كواكبَ الجوزاءِ شَرْبٌ تعاطيهمْ ولائدهُمْ شرابا
كأنَّ الفرقدين ذوا عِتابٍ أجالا طولَ ليلهما العتابا
كأنَّ المشتري لما تعالى طليعةُ عسكرٍ حَنَسوا ارتقابا
كأنَّ الأحمرَ المرّيخَ مُغْضِ علَى حنَقٍ يشبُّ به شهابا
كأنَّ بقيةَ القمرِ المولِّي كئيبٌ مدنفٌ يشكو اجتنابا[45]

تبدو هذه الظاهرة عبر كتاب الكتاني بشكل لافت للنظر، وإلحاح الشاعر فيها على الإتيان بالصورة التشبيهية التي تتوسل بنيتها التركيبية بأداة التشبيه (كأن) –بصفة خاصة– وهو ما يفسِّر إفراط الأندلسيين بالتوسل في تشبيهاتهم بالبنية التركيبية (كأن)، التي يسْهِل استخدامها لتوافق عنايتهم الكبيرة بالتشبيه، وشغفهم به قياساً إلى استخدام حرف الكاف، وهذه الظاهرة كثيرة في مختارات الكتاني، وتكاد تتكرر عند كثير من الشعراء، كأنه حرص على تصيدها والإتيان بها في مختاراته.

(45) التشبيهات من أشعار أهل الأندلس، ص.30 .

الخاتمة

في ختام الدراسة نقول إن كتاب (التشبيهات من أشعار أهل الأندلس) كشف لنا عن سمات الذوق الجمالي لمؤلفه من جهة، وبالتبعية عن خصائص الخطاب الإبداعي الأندلسي على امتداد هذه الفترة الكبيرة التي اختصها الكتاني بمختاراته الأندلسية من جهة أخرى، وإن كانت هناك مختارات سبقت الكتاني قبل تأليفه لكتابه، فإن التأثر والتأثير بين الآداب أمر لا مناص منه, وشواهده في الدراسات الأدبية كثيرة جدًّا، لكن الرؤية الكونية تثبت أن الإنسان وإن كان توأماً فإن لكل واحد خصوصية مضمنة في جِبِلَّةِ الإنسان، وهو ما ظهر لنا في مؤلفات رجالات الأندلس، الذين أضافوا وتفوقوا في كتاباتهم مما يعد جديدًا في الشعر الأندلسي وهو ما نجده عند الكتاني، إذ عكست مختاراته ذوق معاصريه من النقاد والشعراء والأدباء الأندلسيين، وفسَّرت في الوقت نفسه كثيراً من مسارات الذوق الجمالي والنقدي بالأندلس في العصور اللاحقة لعصر الكتاني، إذ لم يستثنِ من هذه العناية الشعراء الذين جدُّوا في استخدام التشبيهات كعنصر جمالي وفني يسمو بالذوق الأدبي للأندلسيين، ويرسم تفوقهم على غيرهم من الشعراء المشارقة، وكانت مناسبة الكتاني أن يتصيد هذه الأشعار ليضمها في كتابه مقسِّماً إياها إلى أبواب تنسجم من حيث المواضيع والتيمات الشعرية التي اتَّخذ فيها الشعراء التشبيه، كمطية للتعبير عن دواخلهم في صورة تنم عن ذوق جمالي راق؛ فجاء الكتاب محملا بالمعاني والصور التشبيهية الدقيقة التصوير، والتي كان منطلقها ذوق الكتاني وحسه النقدي والفني. وما زال كتاب الكتاني ميدانا خصبا للدراسين، وفق الزوايا التي يراها كل واحد منهم.

المصادر:

1. تاريخ علماء الأندلس، ابن الفرضي. أبو الوليد عبد الله بن محمد (ت403هـ)، تحقيق. روحية عبد الرحمن، دار الكتب العلمية، بيروت، ط.1، 1997
2. التشبيهات من أشعار أهل الأندلس، أبو عبد الله محمد بن الكتاني الطبيب، تحقيق. د. إحسان عبَّاس، دار الشروق، بيروت، ط. 2، 1981.
3. جذوة المقتبس في تاريخ علماء الأندلس، الحميدي (تـ 488هـ)،تحقيق. روحية عبد الرحمن، دار الكتب العلمية، بيروت، ط.1، 1997.
4. الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، أبو الحسن علي بن بسام الشنتريني، تحقيق. إحسان عباس، الدار العربية للكتاب، ليبيا، تونس، ط. 1، 1981، ج. 1، ق. 1.
5. أسرار البلاغة، عبد القاهر الجرجاني، تحقيق. محمود محمد شاكر، دار المدني، جدة، المملكة العربية السعودية،ط.1، 1991.

6. شرح ديوان الحماسة، المرزوقي الأصفهاني، تحقيق. عبد السلام هارون وأحمد أمين، دار الجيل، بيروت، ط. 1991،1، ج. 1.
7. غرائب التنبيهات على عجائب التشبيهات، علي بن ظافر الأزدي، تحقيق. محمد زغلول سلام ومصطفى الصاوي الجويني، سلسلة ذخائر العرب، ع. 45، دار المعارف، القاهرة، 1983.
8. معجم الأدباء، ياقوت الحموي، تحقيق. د. إحسان عباس، دار الغرب الإسلامي، بيروتط.1، 1993، مج. 4.
9. لسان العرب،ابن منظور، دار صادر، بيروت، ط.1، 1992، ج.9.
10. نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، المقري التلمساني، تحقيق. إحسان عباس، دار صادر، بيروت، 1968، ج.1.
11. نقد الشعر ، أبو الفرج قدامة بن جعفر ، تحقيق. كمال مصطفى، مكتبة الخانجي، القاهرة، 1978.
12. وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمدبن أبي بكر بن خلكان، تحقيق. إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ج. 7، ط. 1، 1994.

المراجع:

1. تاريخ الأدب العربي، العصر العباسي الأول، شوقي ضيف، دار المعارف، القاهرة، ط.6، 1976.
2. تاريخ الأدب الأندلسي، محمد زكريا عناني، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، 1999.
3. الأدب الأندلسي من الفتح إلى سقوط الخلافة، أحمد هيكل، دار المعارف، القاهرة، ط. 1994،11.
4. الأدب وفنونه، عز الدين إسماعيل، دار الفكر العربي، القاهرة، 1978.
5. تاريخ النقد الأدبي عند العرب، د.إحسان عباس، دار الشروق للنشر والتوزيع، الأردن، ط. 2، 1993.
6. سيكولوجية التذوق الفني، مصيري عبد الحميد حنورة، دار المعارف، القاهرة، 1985.
7. معجم المصطلحات البلاغية وتطورها، د. أحمد مطلوب، مطبعة المجمع العلمي، بغداد، 1986، ج. 2.
8. المكتبة العربية: تاريخها، تراثها، حاضرها، د. يوسف نوفل، دار الغد العربي، القاهرة، 1989م.
9. ابن فرج الجيَّاني وكتابه الحدائق، ترجمة. عدنان محمد آل طعمة، مجلة التراثالعربي، مجلة فصلية تصدر عن اتحاد الكتاب العرب، دمشق، ع. 47، 11 أبريل.1992.